

حجارة تحكي وانقاض تنتظر

كتاب فوتوغرافي صدر مؤخراً في رام الله، يوثق انقاض 50 بلدة فلسطينية مهجرة في فلسطين

كناعنة، مصلح، 2008، حجارة تحكي وانقاض تنتظر، اضواء للتصميم. - 14/06/2009م - 1:20 م

المؤلف: د. مصلح كناعنة

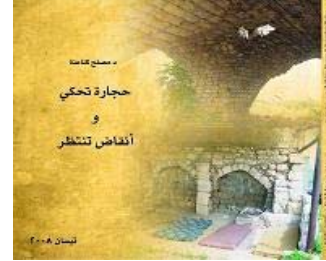
الناشر:

الطبعة: الاولى

سنة النشر: 2008

عدد الصفحات:

التجليد:



مقدمة الكتاب

في الوقت الذي كنتُ أعد فيه هذا الكتاب للنشر، كان يراودني بين الفينة والأخرى شعور مُبهَم باللاواقعية، وبالانسلاخ عن الحاضر المليء بالأحداث للاهتمام بماضٍ عفا عليه الدهر، فليس من السهل على المرء أن يهتم بنكبة مضى عليها ستون عاماً في زمن تتوالى فيه النكبات على الشعب الفلسطيني وقضيته في كل يوم، وليس من السهل على امرئٍ يعيش في خِضَم نكبة الحاضر أن يشغل وعيه وتفكيره بنكبةٍ جرت أحداثها قبل أكثر من نصف قرن. إلا أن المنطق الذي جعلني أتغلب على هذا الشعور وأستمر في العمل على هذا الكتاب، هو نفسه المنطق الذي يجعل هذا الكتاب واقعياً إلى حدّ الألم، فهو يسحب القارئ الفلسطيني من حاضره إلى ماضيه لكي يلقي نظرة على واقعه من هناك، ثم يقذفه في حاضرٍ لا زمن له، تنصهر فيه كل اللحظات والنكبات في حدثٍ واحد يحمل علله وعلاته في داخله. فكل ما جرى ويجري لأبناء الشعب الفلسطيني منذ عام 1948 حتى الآن، في الوطن المحتل وفي بلاد المهجر والشتات، ما هو إلا ملابسات وانعكاسات لنكبة الاقتلاع؛ اقتلاع الإنسان من بيته، واقتلاع البيت من أرضه، واقتلاع الأرض من تاريخها، واقتلاع التاريخ من إنسانيته. والاقتلاع أمران؛ حدثُ الاقتلاع الذي جرى، وواقع الاقتلاع الذي يدوم ما دام المقتلَع مقلَعاً ولا ينتهي إلا بعودة المقتلَع إلى ما اقتلَع منه. والنكبة هي الأخرى أمران؛ حدثٌ جرى ويجري، وواقعٌ يدوم ما دام المنكوب منكوباً ولا ينتهي إلا باسترجاع المنكوب لما نُكِبَ فيه، وإرجاع ما نُكِبَ المنكوبُ فيه إلى الحال الذي كان عليه قبل النكبة. إن الواقع الفلسطيني هو واقعٌ منكوبٌ حتى وإن بدا في بعض الأحيان والحالات غير ذلك، وما من غايةٍ للمشروع الوطني الفلسطيني سوى تغيير هذا الواقع، وكل مشروع يسعى إلى غير ذلك سيلقى الفشل لا محالة. وإذا كانت الضربة التي لا تقتلك تزيدك قوة، فإن الشعب الفلسطيني يزداد قوة يوماً بعد يوم وعماماً بعد عام. ولعل في هذا الكتاب، الواقعي إلى حدّ الألم، ضربة للوعي تسحق الوهم وتقوي انتماءنا إلى واقعنا... وإلى مشروع الخلاص منه.

هذا الكتاب هو الحلقة الأولى من مشروعٍ يسعى إلى توثيق ما تبقى من البلدات الفلسطينية التي هُجّر أهلها في نكبة عام 1948 وتم هدمها أثناء الحرب وفي السنوات التي تلتها. وتتعرض أنقاض هذه البلدات داخل الخط الأخضر إلى النهب والتخريب بشكل مستمر، فسكان المستوطنات اليهودية يستولون على حجارة بيوتها لبناء بيوتهم، وينهبون ما يجدونه فيها من آثار تاريخية وبقايا فلكلورية لتزيين حدائقهم ومنتجعاتهم. كما أن التوسع الاستيطاني في منطقتي الساحل وجبال الجليل، والذي شهد في العقدين الأخيرين تسارعاً لم يشهده من قبل، يؤدي باستمرار إلى اختفاء معالم البلدات الفلسطينية المهجرة ومحو آثارها من الوجود. من هنا

تتبع الحاجة إلى توثيق أنقاض هذه البلدات قبل أن تختفي أو تتغير معالمها إلى الأبد، ففي ذلك تنبئاً للتاريخ الفلسطيني، وللحق الفلسطيني الذي يستند عليه. ومن الواضح أن التوثيق بهذا المعنى يجب أن يكون فوتوغرافياً لكي يرقى إلى مستوى الوثائق الدامغة التي لا يمكن دحضها، إلا أن لهذا المشروح الفوتوغرافي بعد آخر بالغ الأهمية، لمّا له من انعكاسات على الهوية الفلسطينية في وضعية التمزق والاعتراب. فالغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني، أولئك الذين يعيشون في الشتات وفي الضفة الغربية وقطاع غزة، يُمنعون من عبور الخط الأخضر والدخول إلى مناطق الـ48 لإلقاء نظرة على بلداتهم التي هُجروا منها والتعرف على ما حل بها من تدمير وتخريب. إن ستين عاماً من القطيعة، ومن انتقال الصور الذهنية عبر الرواية الشفوية من جيل إلى جيل، جعلت الصور الذهنية تبهت في الذاكرة الفلسطينية، فاختلطت خطوطها واختفت تفاصيلها من مخيلة الجيل الثاني والثالث من المهجّرين. ولذا فقد أصبح من الضروري الآن أكثر من أي وقت مضى أن يُعاد بناء هذه الصورة وتوضيح معالمها وتثبيت تفاصيلها في مخيلة الأجيال الشابة ووعيهم. وإذا كانت الصورة الفوتوغرافية لا تُري إلا الأنقاض، فبالوصف الكلامي يمكن أن يُفصّل الغبار عن الأنقاض، ويُعاد بناء الكل من الأجزاء، وتُبعث الحياة في هذه البلدات من جديد، لكي ترسخ في الذاكرة وتحيا في الوعي فتعزز الهوية وتجذّر الانتماء.

وحيث أن الغاية من تصوير أنقاض البلدات الفلسطينية المهجّرة هي ذات شقين؛ التوثيق الموضوعي من جهة، وإعادة بناء الذاكرة الفلسطينية وتعزيز الانتماء الفلسطيني على المستوى الإدراكي والشعوري من جهة أخرى، فإنه من الضروري أن تكون الصور شديدة الوضوح من ناحية، وشديدة التأثير على نفسية وذهنية المشاهد من ناحية أخرى. وإذا كان وضوح الصورة يتطلب تقنية عالية، فإن التأثير على نفسية وذهنية المشاهد يعتمد بالإضافة إلى ذلك على اختيار المصورّ لزاوية التصوير، وموضوع الصورة، وعمق المشهد، والتناسب بين ما يبدو في إطار الصورة وما يبدو في مركزها، فبهذه الخيارات يستطيع المصورّ أن يجعل من نفسه ومن الصورة التي يلتقطها مجرد حلقة وصل تتوسط بين المشاهد والمنظر، بحيث يشعر المشاهد للصورة وكأنه متواجد في المكان ينظر إلى المشهد بأم عينه. والمقدرة على اتخاذ الخيارات المناسبة في هذا المجال لا تتأتى من المعرفة والخبرة والممارسة فحسب، وإنما تحتاج كذلك إلى مقدرة المصورّ على التقمص الوجداني للمشاهد. وإنني إذ أترك للقارئ الحكم على مقدرتي في إيصاله إلى المنظر وإيصال المنظر إليه من خلال الصورة، فإنني أعترف له أن التقمص الوجداني كان يصل بي في معظم الأحيان إلى حدٍ كان يؤلمني الخروج منه أكثر مما ألمني الدخول فيه.

عملٌ مضمّن بلا شك، إلا أنني كنت ولا زلت أجد فيه متعة لا توصف... متعة النهوض من الركام، واكتشاف الذات في ذاتها الأكبر، وقهر المقهور للقاهر بأبسط الوسائل.